بلاد اللبان والمرّ

ظفار وجبالها

بلغنا ان ما كتبناهُ في الجزء الاخير من المقتطف عن "حضرموت واهلها" وقع موقعاً حسناً لدى قرّاء المقتطف وودوا ان نوافيهم بكل ما نقف عليهِ من هذا القبيل اذ قد انقطعت اخبار تلك البلاد عن قرّاء العربيّة منذ مئات من السنين والمعروف من تاريخها القديم سقيم لا يعوّل عليهِ وهي مثلٌ على قاب قوسين فلا نعذر اذا فاتنا علم ما يعلمهُ عنها ابناء اوربا واميركا. فطالعنا ما كتبهُ الرحّالة بَنْت منذ شهرين عن تلك البلاد وخلصنا منهُ ما بلي واضفنا اليهِ من الحواشي ما تتم بهِ الفائدة ممّا وقفنا عليهِ في الكتب العربيّة. قال

ان البلاد الّتي اشتهرت باللبان (البخور) في التاريخ ضيقة النطاق ولم يزل اللبان يرد منها حتى الآن واسمها ظفار[1] ويرسل من لبانها تسعة آلاف قنطار كل سنة الى بباي

(١) قال ابو الفدا ظفار مدينة على ساحل بحر وقد خرج من البحر الجنوبي وطعن في البر من جهة الشمال نحو مئة ميل وعلى طرف هذا الخور مدينة ظفار ولا تخرج المراكب بهذا الخور الا برياح البحر ويقلع منها في الخور المذكور الى الهند. وظفار قاعدة بلاد الشحر وفي اراضيها كثير من نبات الهند كالنارجيل والقنبل وشمالي ظفار رمال الاحقاف. وفي القاموس "ظفار بلد باليمن قرب صنعاء" وآخر بها قرب مرباط واليهِ ينسب القسط لانهُ يجلب اليهِ من الهند". وهذه هي ظفار الساحل المقصودة في المتن. والظاهر ان ابا الفدا خلط بين البلدين وكأنهُ اراد بالخور وادياً كبيراً يمتد من صنعاء الى البحر مئة ميل او اكثر. وقد زار ابن بطوطة الطنجي ظفار الساحل منذ نحو خمس مئة وسبعين عاماً فقال فيها ما نصهُ. "ركبنا البحر من كلوا الى مدينة ظفار الحموض وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند وينقطع البحر ما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل وقد قطعتهُ مرةً من قالفوط (كلكتا) من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوماً بالريح الطيبة (سنة ٧٤٨ للهجرة) وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً وبينها وبين عمان عشرون يوماً ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمارة لها والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء وهي من اقذر الاسواق واشدها نتناً واكثرها ذباباً لكثرة ما يباع بها من الشرات والسمك واكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو بها ومن العجائب ان دوابهم انما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم ار ذلك في سواها ... وهم اهل تجارة لا عيش لهم الا منها ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ويشدون الفوط على اوساطهم عوض السروال ... واكثرهم رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم. ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم وزنت بحضرتي حبة منهُ فكان وزنها اثنتي عشرة اوقية وهو طيب المطعم

ببلاد الهند يأتي به عرب الغارة الى البحر وينقل من هناك في سفن شراعيّة الى بلاد الهند

وبلاد ظفار بين عدن ومسكت[١] على ثماني مئة ميل من الاولى وستمئة واربعين ميلاً من الثانية وهي خاضعة لسلطان عمان وعليها والٍ من قبله اسمهُ سليمان وُلي عليها منذ ثماني عشرة سنة ولهُ يد في تنصيب السلطان طوركي على بلاد عمان وهو شديد البأس نافذ الكلمة في قبائل العرب حتى بلاد نجد والجميع يخافونهُ ويخشون سطوتهُ

وقد نزلنا في الباخرة العثمانيّة الحديدة من مسكت قصبة عمان وسرنا بها الى مرباط[٢] وهي اول فرضة من بلاد ظفار وفيها الآن نحو خمسين بيتاً وقليل من اكواخ العرب وهي على لسان داخل في البحر ومرفأها امين . فرحّب بنا اهلها اولاً ثم رابهم امرنا فانتقضوا علينا لغير سبب ظاهر ومنعونا من دخول مدينتهم ولعلهم ظنوا اننا اتينا لنتجسس امرهم لانهم يتجرون بالعبيد . ثم اجتمع شيوخهم في مشورهم وتذاكروا طويلاً وقرّ قرارهم اخيراً على قبولنا فانزلونا في برج كبير . ولم تطب لنا الاقامة في مرباط لفساد هوائها وكثرة البطائح في ضواحيها فقمنا في اليوم التالي واستأجرنا سفينة لنسير بها الى الحفا وهي على اربعين ميلاً من مرباط . وكانت السفينة قذرة كغيرها من سفن العرب وفي قاعها ماء منتن

شديد الحلاوة وبها ايضاً النبول والنارجيل المعروف بجوز الهند . وكان على ظفار حينئذٍ الملك المغيث ابن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن "

واتى الى ظفار بالبادري بايز اليسوعي في اوائل القرن السابع عشر اسيراً فوجدها خاضعة لسلطان الشحر وكانت عاصمة في حضرموت . والظاهر ان ظفار خربت من ذلك الحين لانهُ ليس هناك الآن مدينة بهذا الاسم بل قرى كثيرة وهي الدهاريز والطاقة والسلالة والحفا والعقاد والرباط وهنا لك خرائب مدينة قديمة تسمى البلد ولعلها خرائب ظفار نفسها . وذكر ابن خلدون ظفار فقال انهُ كان على بابها بالقلم الاول في حجر اسود ابيات يقال فيها

يوم شيدت ظفار قيل لمن انت قالت لخير الاخيار
ثم سيلت من بعد ذلك قالت ان ملكي احابش الاشرار
ثم سيلت من بعد ذلك قالت ان ملكي لفارس الاحرار
وقليلاً ما يلبث القوم فيها غير تشييدها لحامي البوار
من اسود يلتهم البحر فيها تشعل النار في اعالي الجدار .

(١) كذا يتلفظ بها الحضارمة الآن ويكتبونها لكن ابن بطوطة كتبها مسقط وكذا وردت في القاموس والتاج قالا ومسقط كمقعد بلد على ساحل بحر عمان ما بلي بر اليمن يقال هو معرَّب مشكت

(٢) قال ابو الفدا « مرباط بكسر الميم وسكون الراء على ساحل جون ظفار وهي بليدة في الشرق والجنوب عن ظفار قال الادريسي وبين مرباط وبين قبر هود عليهِ السلام خمسة ايام . وقال في كتابهِ نزهة المشتاق وبجبال مدينة مرباط ينبت شجر اللبان ومنها يجهز الى البلاد »

كادت تزهق ارواحنا من رائحتهِ فجعل البحارة يوقدون اللبان وكان وسق سفينتهم منهُ فغلبت رائحتهُ على الروائح الخبيثة . ولم تكن السفينة خالية من كل زينة واثر صناعة لان لاولئك البدو مهارة في نقش الخشب فترى سفنهم كثيرة النقوش والزخارف

وليس على ساحل البحر بين عدن ومسكت بقعة خصبة غير سهل ظفار وهو غزير الماء خصب التربة فيهِ كثير من شجر النارجيل وعلى ساحلهِ قرى عامرة فرسونا لدى قرية منها واستقينا من مائها ودفعنا للسكان تمرًا بدل الماء وهي عادة لهم يعطون الماء للمسافرين ويأخذون التمر بدلاً منهُ . وبعد عناء كثير بلغنا الحفا وهناك قصر الوالي سليمان وكان معنا كتاب لهُ من سلطان عمان فرحّب بنا وانزلنا في قصرهِ واتت زوجاتهُ وزرن زوجتي وأهدين اليها كثيرًا من نفيس الفاكهة وصبغًا لتصبغ بهِ اسنانها . وبكّر الوالي مفلوح ولذلك اوصى بولاية عهدهِ لابن اخيهِ وهو ساكن معهُ في جانب من القصر . ولهُ ولدان آخران عمر احدهما اثنتا عشرة سنة وهو ابيض الوجه اشقر الشعر من جارية شركسيَّة اهداها اليهِ سلطان عمان ولكنها هربت الى بباي مع ولدها هذا فاهتدى اليها وارجعها ثم بعث بها الى زنجبار وهي الآن خادمة فيها في بيت احد امرائها. وعمر الولد الثاني خمس سنوات وهو من جارية سوداء. وقد بلغنا عنها ان سيدها ارتاب بها فحفرت لها حفرة دُفنت فيها الى وسطها ثم رُجمت بالحجارة الى ان قضت نحبها. وفي منطقة كلٍّ منهما خنجر مذهب من خناجر عمان . وفي ساحة القصر كثير من الاسرى اسرهم الوالي سليمان بحرب نشبت بينهُ وبين قبيلة مهري على عنبر(٤) قذفهُ البحر في بلادهِ فاختلستهُ هذه القبيلة

وكنا عازمين ان نقطع جبال الغارة ونرى ما وراءها فدعا الوالي مشايخ عرب الغارة الى الحفا واوصاهم بنا وهم يهابونهُ ولا يعصون لهُ امرًا فاتفقنا معهم على مال ندفعهُ اليهم اجرة جمالهم وحمايتهم لنا . والنقود الرائجة هناك الريال النمسوي (ابو طيره) لاغير . ورئيس هؤلاء المشايخ الشيخ صائل شيخ بيت الختن وهم اكبر بطن من بطون قبيلة الغارة وهو كبير السن واسع الثروة عندهُ خمس مئة من البقر وسبعون جملاً ولكنهُ عارٍ لا ثوب عليهِ سوى فوطة على وسطهِ

وقبيلة الغارة متبدية في تلك الجبال تتتبع المراعي والمناهل لانعامها وتأوي الى الكهوف التي احتفرها اسلافها في غابر الزمن ولا مأوى لها غيرها في الجبال واما اذا

(٤) العنبر مادة تترر من امعاء الحوت وتطفو على البحر فتبلغ الساحل وقد يقع الحوت كلهُ على الساحل فيوجد العنبر في امعائهِ . وبلغنا من اهل اليمن انهم يكتسبون الآن كثيرًا من التقاط العنبر

نزلت الى سهل ظفار في الشتاء ابتنت خصاصاً من الخلفاء لسكناها

وفي اوائل هذا القرن غرقت سفينة اميركية على شاطيء هذه البلاد فقُتل كل من فيها الاَّ شاباً من البحارة استحياهُ رجال هذه القبيلة فعاش بينهم وتزوج منهم ثم صار لهُ شأن كبير فجعلوهُ شيخاً عليهم ومات وخلف ابنتين فقط لم تزالا في تلك الجبال. ولو التقى بهِ احد الاوربيين قبل وفاتهِ لسمع منهُ اموراً كثيرة من اغرب ما رواهُ الرواة

ومع كل رجل من رجال الغارة سيف المافي عريض وترس من الخشب او من جلد كلب البحر وعصاً عقفاء كالعرجون يرشقون بها العدو او الصيد فلا يخطئونهُ. والسيوف يأتيهم بها الالمان الذين في المستعمرات الالمانية والافريقية. وبنادقهم قليلة وهم لا يهتمون بالاسلحة النارية كالحضارمة . وعندي انهم وسائر سكان هذه البلاد من اهل حمير الاصليين لا من العرب وقد كانوا في البلاد قبلما دخلها العرب . وسار معنا سبعة عشر منهم وهم عراة ليس على ابدانهم شيء غير الفوط مشدودة على احقائهم ومع كلٍّ منهم سيف وترس وعصا وكلهم ابيٌّ لا يفعل الاَّ ما يحسن في عينيهِ فاذا طلبنا منهم ان يفعلوا شيئاً لا يريدونهُ ابوا وقالوا نحن شيوخ لا عبيد. وكانوا يكرمون الشيخ صائل وينتظرون منا ان نكرمهُ مثلهم

وحدث يوماً انني اغظت سيدا الشيخ فوقف رجالهُ وعزموا على تركنا وذلك اننا التقينا بقوم من آل الخطن يرعون مواشيهم فاخذ رجالنا منهم جديين وذبحوهما واشعلوا النار واحموا الرضف والقوا اللحم عليها وجعلوا يقطعون الشواء بسيوفهم ويأكلونهُ ويجلبون ويطربون حتى ظننتهم سكارى. وظلوا يغنون الليل كلهُ يطفرون ويتلاحقون وكثيراً ما كانوا يعثرون باطناب خيامنا حتى عيل صبرنا ولم يغمض لناجفن واتفق ان واحداً منهم عثر باطناب خيمتي فنهضت وخرجت اليهِ ولبطتهُ برجلي فالقيتهُ على الارض وللحال سكن جاشهم . ولما قمنا في الصباح وجدتهم جلوساً لا يبدون حراكاً على غير عادتهم فناديتهم لكي يقوموا ويرفعوا الرحال فقالوا كلاَّ بل لا بدَّ من الرجوع الى الخلف لان تيودور (وهو اسمي) قد لبط الشيخ صائل. وكانوا قد سمعوا زوجتي تنادني بهذا الاسم فلم يكونوا ينادوني بغيرهِ . وتبيَّن لي حينئذٍ ان الامر ذا شأنٍ خطير فلجأت الى الحيلة وضحكت حتى اغربت في الضحك ودنوت من الشيخ صائل ووضعت يدي على كتفهِ وقلت لهُ انني لم اعرفهُ وانهُ اذا كان لا يعثر باطناب خيمتي بعد الآن فانا لا البط حضرتهُ ابداً . فابرقت اسرَّتهم حالاً ونهضوا الى الرحال فرفعوها على الجمال وانقضى المشكل على احسن حال

وفي اليوم الثالث من قيامنا من الحفا سرنا في وادٍ يكثر فيهِ شجر الكندر الذي يخرج منهُ اللبان وهو شجر صغير تجرح سافهُ وقت الحر ويكشط القشر تحت الجرح حتى تصير فيهِ نقرة فيخرج منهُ عصار لبني يجتمع في تلك النقرة ويجمد فيها وهو اللبان فيعودون اليهِ بعد سبعة ايام ويجمعونهُ وقد يكون الصمغ منهُ اكبر من البيضة (٥)

ويكثر الكندر الآن في ثلاثة اماكن من جبال الغارة وقد كان كثيراً فيها كلها حينما كان اللبان يوقد في هياكل الاصنام وكانت تجارتهُ محصورة باهل سبأ. وكان هؤلاء يرون عنهُ الاقاصيص المختلقة تعظيماً لشأنهِ ولذلك كثر اهتمام القدماء بهِ حتى ان اغسطس قيصر بعث باليوس غالوس ليبحث في بلاد العرب عن مواطنهِ . ويؤخذ من المقريزي وابن خلدون ان كتّاب العرب اوضحوا حقيقتهُ وخلاصة اخبار ظفار وملوكها احسن ايضاح ثم جاء اهالي البرتغال واستولوا على مسكت وجعلوا خليج العجم بحيرة برتغالية خمسين عاماً ودخلوا ظفار وعرفوا منابت اللبان

وينبت المر ايضاً في جبال الغارة بجانب اللبان وصمغهُ ضارب الى الحمرة واما صمغ اللبان فابيض . ولا بدَّ من ان تجارة ظفار كانت واسعة النطاق جدًّا في العصور السالفة كما يستدل من الاطلال الكثيرة المنتشرة هناك

وكانت الجمال التي امتطيناها نفورة كانها لم تذلل قط فاتعبتنا في الايام الاولى. وهي مغرمة باكل العظام فحيثما رأت عظماً اسرعت اليهِ والتقمتهُ . ويقدّد اصحابها السمك ويطعمونها اياهُ وكذلك نوعاً من الصبر ينبت في تلك الجبال فانهم يشرحونهُ ويبيسونهُ ويعلفونها بهِ وهي اثبت قدماً من كل الجمال التي رأيتها قبلاً

وظللنا في سهل ظفار بضعة ايام نبحث عن اطلال المدن القديمة ونشاهد خصب الارض وقد ثبت لنا انها لو زرعت القطن والنيل والتبغ والحبوب لجاءت بغلات وافرة . والماء كثير فيها في برك على وجه الارض او في آبار قريبة القاع . وهناك كثير من النارجيل وقد شربنا من لبنهِ والسكان يعطّنون اليافهُ في الماء ويصنعون الحبال منها

ثم صعدنا في احد الاودية المنشعبة من جبال الغارة حتى بلغنا بحيرة في قلّت كبير

(٥) وفي مفردات ابن البيطار قال ابو حنيفة اخبرني اعرابي من اهل عمان انهُ قال اللبان لا يكون الا بالشحر شحر عمان وهي شجرة مشوكة لا تثمر اكثر من ذراعين ولا تنبت الا بالجبال ليس في السهل منها شيء ولها ورق مثل ورق الآس وثمر مثل ثمرهِ له مرارة في الفم وعلكهُ الذي يمضغ ويسمى الكندر ويظهر في اماكن منهُ تعقر بالفؤوس وتترك فيظهر في آثار الفؤوس هذا اللبان فيجتنى

من الصخر وقد احاطت بها السراخس والاشنان إحاطة السوار بالمعصم وقامت فوقها اطيار الماء كالشراع المعلم . والآكام حولها مغطاة بالجميز والقرَظ وقد تعرَّش به الياسمين واللبلاب . والماء صافٍ زلال بارد كالثلج يتفجر من ثلاثة عيون في الصخر ويصب في تلك البحيرة . واذا هطلت الامطار علا السيل وانعم الوادي كما يستبدل من الحجارة العالقة باغصان الاشجار

والتقينا بكثيرين من بني الختن يرعون مواشيهم في ذلك الوادي ويأوون الى الكهوف ألتي فيه وكلهم خاضع للشيخ صائل رئيس جماعتنا فلما رأينا الجبال كلها في طاعته سلمنا امرنا لهُ ليذهب كيف شاء . وسلام هؤلاء الناس اذا التقى بعضهم ببعض غريب يستحق الذكر فاذا التقى اثنان من المعارف منح الواحد راحتهُ براحة الآخر وباس كلٌّ منهما انامله واذا التقى صديقان تصالحا وتعانقا . واذا التقى قريبان تصالحا وفرك كلٌّ منهما انفهُ بانف الآخر ثم تعانقا. ولذلك كان رجالنا يقفون للتحية كلما التقوا باقاربهم او بمعارفهم ويديرون حجر التبغ فيمصُّ كلٌّ منهم مصَّة . وقد التقى الشيخ صائل بكثيرين من اقاربه في ذلك الوادي فكاد انفهُ ينسلخ من كثرة الفرك وحمدنا الله لان ليس لنا اقارب فيه يحيوننا كذلك

وكنا كلما حططنا رحالنا يجتمع البدو حولنا يطلبون ان نطببهم ونعطيهم ادوية فنلبي طلبهم على قدر الامكان . ومن الذين استشارونا والحّوا علينا في طلب العلاج الشيخ صائل نفسهُ فان العناية قد منحتهُ ثروة واسعة وجاهاً عريضاً وامرأتين من خيرة نسائهم ولكنها حرمتهُ من النسل فجاءنا يوماً مع شيوخ قبيلته وطلبوا منا ان نعطيهُ دواء ليرزق اولاداً فقلت لهم ان لا دواء عندي لهذه العلة فلم يصدقوا وكان معي كتاب طبي صغير فاومأوا اليه وطلبوا ان اجد الدواء فيه ولم اقنعهم الاَّ بعد ان قلَّبت الكتاب وقلت لهم اني لم اجد فيه دواء

ونساء الغارة بحائر لا حسان ولا قباح . والرجال والنساء كلهم صغار الابدان ولكنهم شداد العصب ولا تكثر نساؤهم الحلى كالحضريات ولا يخضبن وجوههنَّ بل يكتفين بتزجيج الحواجب وتكحيل العيون ورسم الخيلان في وجناتهنَّ ولا يتبرقعنَ وكنَّ يتفرن منا اولاً ثم الفتنا وصرنَ يدنين من خيامنا ويأخذن ما نعطيهنَّ من الابر ونحوها

ودخلنا الكهوف وشاهدنا سكانها ومواشيهم فيها وبعضها كبير جداً يبنون فيه اكواخهم . وادوات الفلاحة ألتي عندهم من ابسط ما يكون وهم يخضون اللبن في زق ويستخرجون

الزبدة منهُ ويرسلونها الى ظفار ويحشون البوّ لكي تراهُ البقر فتظنهُ فلوها وتدرُّ

وجبال الغارة خصبة كلها يغطيها العشب ويكثر فيها شجر الجميز . وقد جلنا على ظهرها ايّاماً متوالية وهي لا تعلو عن سطح البحر الاّ ثلاثة آلاف قدم وتفصل صحاري نجد عن البحر الجنوبي فيحيط بها بحران بحر من الرمال شمالاً وبحر من الماء جنوباً ولون الافق في الجانبين واحد حتى تظن صحاري نجد بحراً خضمًّا . ويقول البدو سكان هذه الجبال ان الجن تسكن كل غدير ومنهل وتقيم تحت كل شجرة وشاهق فيحترزون عليها دواماً لكي لا تتعرض لهم بسوء . ولا يجسرون ان يخوضوا البحيرات خوفاً منها . وهم اذا كانوا في الساحل تظاهروا بالاسلام واما اذا اعتصموا في جبالهم تركوا الصلاة والوضوء ولم يهتموا الاّ باسترضاء الجن ولذلك يكفّرهم المسلمون كما يكفّرون غيرهم من سكان الجبال كالنصيرية والدنماهية والعلائية

وبرد الهواء شديدًا ونحن في اعالي جبال الغارة فلم يعد للجمالة همٌّ الاّ الاحتطاب والاصطلاء فاضطررنا ان ننزل عنها الى الساحل

وقد قال كلوديوس بطليموس في جغرافيته ان قصبة بلاد اللبان كانت معروفة عند اليونانيين بحرَم ارطاميس . وقد شاهدنا خرائب هذه المدينة وخرائب حصنها وآثار سورها وخندقها ومدافنها وهيأكلها . والهياكل مغطاة بآثار الفرس الذين استولوا عليها في في القرن الرابع عشر والخامس عشر وحوّلوها جوامع ولم تزل النقوش السبئية عليها الى الآن . شاهدنا ذلك كلهُ ولكننا لم نجد الحرم المشار اليهِ آنفاً ولا وجدنا آثارهُ ففتشنا عنها حتى بلغنا كهفاً كبيرًا حيث ظننا وجود الحرم فلم نجد شيئاً . وخرجتُ قبيل المغرب اطوف حول خيامنا فاذا انا بجب كبير عمقهُ نحو مئة وخمسين قدماً وقطرهُ نحو خمسين قدماً وحولهُ آثار جدار سبئي وقوائم ابوام عظيمة وهناك كثير من الانقاض السبئية فثبت لي ان هذا الجب[1] هو حرَم ارطاميس لانهُ يشبه حُرمها في اسيا الصغرى ولان حولهُ كثيرًا من الآثار السبئية وبجانبهِ كهف عظيم وذلك كلهُ منطبق على ما جاء في وصفهِ عند القدماء . ثم سرنا شرقاً في سهل ظفار حتى بلغنا مزرعة الوالي سليمان اسمها رزات وهي كثيرة البساتين تستقي من غدير غزير الماء ففرش لنا الخدام البسط تحت اشجار التوت

(١) لعلّ هذا الجب بئر برهوت التي قيل انها مأوى ارواح الكفار . قال ابن عباس ان ارواح المؤمنين بالجابية من ارض الشام وارواح الكفار ببرهوت من حضرموت . وقال النعمان بن بشير

الى تذكرها وغمرة دونها هيهات بطن قناة من برهوت

الى ان نصبت خيامنا وقطفوا لنا الاثمار الشهية والخضر الطريئة . وهنا يقيم الوالي سليمان كلما اراد الراحة من عناء الاشغال ومهام السياسة

وقمنا في الغد ووحثثنا السير قاصدين طخا وهي اكبر قرية في الطرف الشرقي من سهل ظفار . وكنا نفتش عن المرفإ القديم الذي كان تجار اللبان يقصدونهُ في غابر الازمان . نقد قال ياقوت الحموي ان السفن الذاهبة الى الهند والآتية منها كانت تلجأُ اليهِ اذا اشتدَّت عليها ريح السموم وانهُ على عشرين غلوة من قصبة ظفار شرقاً . وهذا المرفأُ يسميهِ بطليموس ابسابوليس والعرب يسمونهُ مرباط ولكن مرباط الحاضرة لا مرفأَ فيها . وواصلنا السير يوماً بعد يوم حتى بلغنا طخا فرحَّب بنا واليها وعرَض علينا بيتهُ لننزل فيهِ ففضلنا النزول في خيامنا ونصبناها على مقربة من البلد وقمنا في الصباح نتفقد الآثار السبئية القديمة وهي كثيرة هناك فاذا على الجانب الآخر من البلد خور من البحر طولهُ ميلان وعرضهُ نحو نصف ميل وقد تراكمت الرواسب عند طرفهِ فصلتهُ عن البحر فلا يدخلهُ ماؤهُ الاَّ عند المد . ولا شبهة عندي ان هذا هو المرفأُ الذي ذكرهُ القدماء فانهُ امين في كل فصول السنة وهو على عشرين غلوة من خرائب العاصمة القديمة ولا يبعد ان يكون العرب قد سموهُ مرباط ثم نُقل هذا الاسم الى القرية الَّتي نزلنا عندها في اول هذا السفر قبلما بلغنا ظفار . وقمنا من هناك لنوغل في البلاد فلم نكد نسير ثمانية اميال حتى وصلنا الى هوَّة عظيمة عمقها خمس مئة وخمسون قدماً وطولها الاطول نحو ثلاثة ارباع الميل وقد تدلت الرواسب المائيَّة من جوانبها على اشكال شتى وهي من اعجب المشاهد الطبيعية الَّتي شاهدتها في زماني ولا بدَّ من ان القدماء الذين دخلوا هذهِ المدينة خرجوا الى ارباضها وشاهدوا هذهِ الهوَّة فسموا المدينة باسمها فان اسم الهوَّة باليونانية ايبسس فسموها ابسابوليس اي مدينة الهوَّة

وبقينا ثلاثة ايام على مقربة من هذهِ الهوَّة نتفيأُ ظلال اشجارها ونسمع خرير مياهها وصعدنا على الشاهق المطل عليها فاذا النجود والآكام حولها مغطاة بالاشجار اليانعة والرياض النضرة وهناك بحيرتان تختلبان الابصار بحسن منظرهما وبينهما جدول صغير كسيف يسل من نجاد اخضر فجلسنا تحت شجرة عضاه من الجميز واكلنا وشربنا ونحن نحسب انفسنا في جنة من جنان الخلد وهناك اناس من البدو يرعون مواشيهم في تلك المروج النضرة وهي سمينة غزيرة اللبن . واغصان الاشجار مشحونة بالاطيار . وطيور الماء تخوض الجداول والبحيرات ضاحكة على الزمان آمنة نوائب الأيام

واسم هذا المكان عند البدو درباط وهم يأتون به ويجبون بحيرتيه والماء يجري اليهما من جبال كلسيَّة تبعد عنهما يومين ويقيمون فيه سوقًا يفدون اليها من كل الانحاء . فاذا أُصلح المرفأ ودخلت البلاد في قبضة الناس يعرفون كيف ينتفعون بخيراتها صارت من جنان الارض . انتهى بتصرُّف

باب الزراعة

العلف والسماد

اذا كثرت الغلال في بلاد ورخص ثمنها فلا بدَّ لاصحابها من ايجاد الاساليب المختلفة للانتفاع بها . ومن هذه الاساليب استخراج الدبس والكحول والزيت من الحبوب المختلفة واطعام فضلاتها للمواشي فتسمن بها ويغزر لبنها ويخرج منها سماد ترُدُّ به الى الارض القوة التي انتزعتها تلك الحبوب منها . فاذا استخرج من الحبوب ما يساوي ثمنهُ ثمنها واجرة استخراجه فالفضلات كلها ربح واذا زاد ثمن المواشي من اكل الفضلات بما يساوي ثمن هذه الفضلات فربحها ربح لصاحبها

وسنتكلم الآن عن فضلات القمح والذرة والشعير وبزر القطن وبزر الكتان. ففضلات القمح النخالة (الرضة) التي تخرج عند نخل الدقيق . وفضلات الذرة ما يبقى منها بعد استخراج السكر او الالكحول فان اهالي اوربا واميركا صاروا يستخرجون منها نوعًا من السكر والالكحول ثم يجففونها ويطحنونها ويبيعونها علفًا للمواشي وفي الرطل منها حينئذٍ من الغذاء للمواشي اكثر مما في الرطل من الذرة الاصليَّة لان السكر والالكحول يستخرجان مما فيها من النشاء ثم تجفف فيقل نشاؤها وماؤها فاذا بقي من الرطلين رطل مثلاً ففي هذا الرطل كل ما كان في الرطلين من اهم مواد الغذاء بل قد يكون في الرطل من هذه الفضلات قدر ما في ثلاثة ارطال من الذرة الاصليَّة

والشعير يستعمل الآن لاستخراج البيرة فما يفضل منهُ تعلف به المواشي رطبًا وجافًّا وهو علف مشهور حيث تستخرج البيرة

وبزر القطن يستخرج منهُ الزيت والكسب الباقي علف كثير الغذاء جدًّا ولا سيما اذا نزع قشر البزر قبل عصر الزيت منهُ